خطبة الجمعة

التي ألقاها أمير المؤمنين سيدنا مرزا مسرور أحمد أيده الله تعالى بنصره العزيز

الخليفة الخامس للمسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

بتاريخ ٢٠٢٦/٩/١٨

في المسجد المبارك بإسلام آباد في بريطانيا

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله. أما بعد فأعوذ بالله من الشيطان الرّجيم. ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾، آمين.

في الخطبة السابقة، ذكرتُ لكم أثناء الحديث عن توكل النبي ﷺ على الله تعالى، بعضَ الأحداث المتعلقة بهجرته من مكة. وفي هذه الرحلة مزيد من التفاصيل التي وردت في كتب التاريخ، والتي تُبرز جانبًا آخر بشأن توكله ﷺ. جاء في الرواية أنه عند هذه الهجرة، عزم سراقة بن مالك على تتبّع النبي ﷺ طمعًا في الجائزة الموعودة.

حكى سراقة بن مالك بنفسه هذه القصة بعد إسلامه، فقال: جاءتنا رسل الكفار، وكانوا قد جعلوا في رسول الله ﷺ وأبي بكر ديةَ[1] كلِّ واحد منهما لمن قتلهما أو أسرهما. قال سراقة: فبينا أنا جالس في مجلس قومي "بني مُدْلِج" جاء رجل حتى قام علينا، فقال: يا سراقة! إني رأيت آنفا أسودةً[2] بالساحل، أو قال رأيت قافلة ثلاثة أشخاص أراهم محمدا وأصحابه. قال سراقة: فعرفت أنهم محمد وأصحابه، ولكني لم أرد أن يشاركني أحد في الجائزة، فاستدركت الموقف فورًا وغمزت إلى هذا القائل بأن يسكت وقلت: إنهم ليسوا هم، إنما رأيت فلانا وفلانا انطلقوا أمامنا آنفا يبغون ناقة لهم قد ضلّتْ.

قال سراقة: ولبثتُ في المجلس ساعة حتى لا يشكّوا في أمري، حتى قمت فَأَمَرْتُ جَارِيَتِي أَنْ تُخْرِجَ لِي فَرَسِي السريعة إلى مكان كذا وَرَاءِ البيت فَتَحْبِسَهَا عَلَيَّ. ثم بعد قليل أَتَيْتُ هناك واستقسمتُ بالأزلام فلم يخرج في حق السفر، ولكنني لم أبالِ به، فَرَكِبْتُ فرسي وطرت بها، وبدأت أتتبع القافلة التي كنت أرى أنها محمد ﷺ وأصحابه، وقطعت منزلا تلو منزل حتى اقتربت من القافلة بوقت ليس طويلا، فَلَمَّا دَنَوْتُ مِنْهُمْ عَثَرَتْ بِي فَرَسِي خلاف المعتاد، فَخَرَرْتُ عَنْهَا، فَقُمْتُ فَاسْتَقْسَمْتُ بِالْأَزْلَامِ، فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ. لكني كنت أريد أن آخذ محمدًا معي وأنال جائزة مئة بعير. فقمت وَرَكِبْتُ فَرَسِي حَتَّى إِذَا دَنَوْتُ مِنْهُمْ بحيث عرفت أنهما

---

[1] أي مائة إبل.

[2] أسودة – أشخاص.

محمد وأبو بكر وكنت أسمع صوت محمد (ﷺ) يقرأ القرآن الكريم ولم يكن ﷺ ينظر إلى الخلف، ولكن أبا بكر كان ينظر إلى الخلف مرارا، (ولعل أبا بكر ﷺ كان ينظر إلى الأطراف بدافع الحماية والحراسة) عَثَرَتْ بِي فَرَسِي بشدة وساخت يداها في الرمال، فَخَرَرْتُ عَنْهَا، فَزَجَرْتُهَا وَهَضْتُ، فَلَمْ تَكَدْ تُخْرِجُ يَدَيْهَا، فَلَمَّا اسْتَوَتْ قَائِمَةً ثار الغبار من يديها حتى انتشر في السماء مثل الدخان. فَاسْتَقْسَمْتُ بِالْأَزْلَامِ مرة أخرى، فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ. فَنَادَيْتُهُمَا بِالْأَمَانِ، وقلت لن تجدوا مني شرًّا. فَقال رسول الله ﷺ لأبي بكر اسألْه عما يريد. فقلت: أنا سراقة بن مالك وأريد أن أتحدث معكم. فوَقَفُوا، فَقُلْتُ: إِنَّ أهل مكة قَدْ جَعَلُوا فِيكَ جائزة مئة بعير لمن يأتي بك حيا أو ميتا، وقد تعقبتكما طمعًا في هذه الجائزة، ولكن ما حدث معي قد جعلني أوقن بأني لم أكن مصيبا في مطاردتكم. ثم عَرَضْتُ عَلَى النبي ﷺ الزَّادَ وَالْمَتَاعَ، ولكنه ﷺ لم يقبلهما، وَلَمْ يَسْأَلْنِي إِلَّا أَنْ: "أَخْفِ عَنَّا". فوعدتُه بذلك، وقلتُ أيضًا إني موقن أنك ستنال الملك يوما ما، فاكْتُب لِي كِتَابَ عهدٍ حتى إذا حضرتُ إليك وأنتَ ملكٌ ألقى العزَّ والاحترام. وفي رواية أنه طلب كتاب أمان. فَأَمَرَ النبي ﷺ بذلك، فكتبه له أبو بكر ﷺ، وفي روايه كتبه له عَامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ ﷺ. فرجع بالكتاب.

هذا هو شأن النبي ﷺ في توكله على ربه فلم يكن يخاف قط، بل واصل مسيره مطمئنًا، وهو يتلو كلام الله تعالى. كان النبي ﷺ على يقين تام بأنه لن يصيبه أي مكروه، حتى إنه حين قال له سراقة: "اكتب لي أمانًا"، كتب له الأمان دون تردد. وكان ذلك الرجل يظن أن النصر سيكون في النهاية للنبي ﷺ، بينما كان يقين النبي ﷺ بذلك أعظم من يقينه، إذ كان على ثقة تامة بأن النصر حليفه، ولهذا لم يتردد في أن يكتب له الأمان.

وفي رواية: لما انصرف سُرَاقةُ راجعًا ناداه رسول الله ﷺ فقال: "يا سُرَاقةُ، كيف بك إذا لبستَ سِوارَيْ كسرى؟". فتحيّر سُرَاقةُ وقال: كسرى بن هرمز؟ فقال ﷺ: "نعم، كسرى بن هرمز". ففي عهد عمر بن الخطاب ﷺ لما جيء بسوارَي كسرى وتاجه ومنطقته[٣]، دعا عمرُ سُرَاقةَ وقال له: ارفع يديك. فألبسه السوارين، ثم قال: قل: الحمد لله الذي نزع هذين من كسرى بن هرمز وألبسهما سُرَاقةَ. (محمد رسول الله والذين معه لعبد الحميد جودة السحار، ج٣ ص٦٥، باب الهجرة)

لقد ذكر المصلح الموعود ﷺ أيضًا حادث الهجرة هذا بكلمات فقال:

إن واقعة الهجرة أيضًا واقعة عجيبة ومروّعة. كانت جزيرة العرب كلها معادية وعطشى لدمه ﷺ، لكنه خرج إلى المدينة مع رفيق وحيد. وعلى الطريق كان جميع الأقوام الذين كانوا يتحرون دائما قتله بسبب العداء الديني إلا أنهم كانوا ساكتين بسبب خوف قريش. أما الآن فقد آن أوانٌ أصبحت فيه قريش بنفسها عازمة على قتله ﷺ وكانت قبائل العرب كلها مطمئنة أنهم لو قتلوه لن يكون هناك سبب لسخط قريش. ولم يقتصر الأمر على أنه لم يعد هناك خوف من معارضة قريش، بل حين وجدت قريش أن النبي ﷺ غائب

---

[٣] المنطقة حزامٌ يلبس حول الوسط.

من مكة حددوا إنعاما لمن يقتله. وأطلعوا القبائل الساكنة في طريق المدينة أن الذي يأتي برسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه حيَّين أو ميتَينِ له جائزة مئة بعير على رأس كل واحد منهما. إن قبائل العرب التي كانت تعيش على النهب والسرقة وكانت تحترق في نار الحسد سلفا، أنّى كان لهم أن يدَعوا هذه الفرصة تفلت من أيديهم؟ فبدأوا بالبحث عنه ﷺ في كل مكان. فكل خطوة كان يخطوها رسول الله ﷺ كان هناك خطر مواجهته عدوا متعطشا لدمه. لقد لوحظ في معظم الحالات المماثلة أن قلب أكثر الناس شجاعة أيضا يخور في مثل هذه المناسبات فيحرم من السعي الأخير، وإذا كان أحد شجاعا باسلا وذا قلب قوي بوجه غير عادي يستولي عليه الخوف ويظهر في كل حركة من حركاته.

لقد قرأتُ سوانح كبار الشجعان، ولكن الحالة التي يعانونها في مثل هذه المناسبات لا يمكن مقارنتها مع ما واجهه النبي ﷺ. يعرف المؤرخون كيف كانت حالة "نابليون" عند الفرار وكيف كانت بوادر الحسرة بادية على وجهه، ويعرفون أيضا كيف كان الملك المغولي "همايون" (في الهند المتحدة) يستعد مرة بعد أخرى لتسليم نفسه للأعداء! ولولا بعض القادة المخلصين معه لعله كان فعَل ذلك. كذلك خلا كثير من القادة الباسلين الآخرين الذين أتت عليهم أيام صعبة وقلقوا واضطربوا في تلك الظروف حين كان الأعداء منتشرين في كل حدب وصوب باحثين عنهم، ولكن النبي ﷺ لم يكن من هؤلاء الناس الدنيويين، بل كان نظره مركَّزا على الله تعالى وما كان ينظر إلى الأسباب المادية ولم يقلق في هذا الوقت العصيب على أنه وحيد ولا يستطيع فعل شيء في حال وجود رفيق واحد معه. وما هي الأسباب المتوفرة لديه لمقاومة العدو إن واجهه في هذا الطريق الخطير؟ بل كان يرى أن معه إلها ظل يحمي عباده الصالحين دائما، ولا يستطيع أيّ عدو أن يقاوم صولته. إن ذلك الإله الذي كان ربّ نوح، وربّ إبراهيم وربّ موسى وربّ يونس وربّ أيوب وربّ داود وربّ سليمان وربّ المسيح الناصري عليهم السلام هو ربي أيضا الذي لا تزول قدراته ولا يغفل لحظة واحدة. لقد لاحقه سراقة بن جعشم نشوانا في الطمع والعداوة وأطلق وراء النبي ﷺ فرسه حين رآه من بعيد. هاج الأمل في قلبه كالبحر الزخار، وما كان يريد أن يصبّغ يديه بدم شخص يسيء إلى دينه ويهدِّئ قلبه الملتاع فقط، بل كان أيضا يطمع في جائزة مئتي بعير (إذ كانت جائزة مئتي بعير قد أُعلنت للقبض على النبي ﷺ ومئة بعير للقبض على أبي بكر رضي الله عنه. وفي رواية أولى ذُكرت مئة بعير وبالجملة تصبح مئتي بعير إذا كانت مئة بعير للقبض على رسول الله ومئة أخرى للقبض على أبي بكر رضي الله عنه) على أية حال، كانت هذه الجِمال تكفي لإعطائه مرتبة مرموقة في قومه، فرفعت همته أكثر. فانقضَّ على رسول الله ﷺ كما ينقض الصياد على صيده وأراد أن يهاجمه ﷺ حاملا الرمح والقوس في يديه. والمهاجم لم يكن وحيدا، بل كان بإمكانه أن يجمع حوله آلاف الناس برفع هتاف واحد لأن النبي ﷺ عندئذ كان يمر من منطقته هو. (فكان بإمكانه أن يجمع أناسا آخرين إذ كانوا في القرب منه) ولكن ماذا كان يجب أن يفعل النبي ﷺ آنذاك؟ هل كان سيفر من المكان؟ أو يسلّم نفسه إليه خائفا؟ هل تزعزعت قدماه؟ هل فقد صوابه؟

أو هل حاول قتله ليمشي بعد ذلك نحو سبيله. (كان العدو وحيدا وقريبا من النبي ﷺ فكان بإمكانه أن يقتله بإطلاق السهم عليه) كلا، بل هذا الإنسان المتوكل على الله لم يعمل أيّا من هذه الأشياء ولم يهتم بسراقة حتى بقدر ما يهتم المرء بالثور. أما أبو بكر ﷺ فكان على الرغم من شجاعته وإيمانه ويقينه وتوكله يلتفت إلى الوراء ليرى كم اقترب سراقة منهما. ولكن رسول الله ﷺ لم يبال به قط ولم يلتفت إلى الوراء ولا مرة واحدة لينظر إليه دع عنك القلق أو الخوف، الأمر الذي جعل سراقة يحتار في أمره ويوقن بعظمة الشخص الذي كان يلاحقه، ولم يستطع أن ينسى هذا المشهد طول العمر بل ترك هذا الحادثُ غير العادي في قلبه تأثيرا كبيرا حتى أنه كان يسرد ذلك دائما ويقول: سَمِعْتُ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ لَا يَلْتَفِتُ وَأَبُو بَكْرٍ يُكْثِرُ الِالْتِفَاتَ. (صحيح البخاري، كتاب المناقب) أي قد اقتربتُ من رسول الله ﷺ على فرسي لدرجة كنت أسمع قراءة النبي القرآن الكريم، ووجدت أنه ﷺ لا يلتفت قط بينما كان أبو بكر يفعل ذلك. سبحان الله! ما أعظم هذا التوكُّل على الله. لقد اقترب العدو كثيرا مع فرسه لدرجة يستطيع أن يسمع صوته ﷺ أيضا وكان النبي ﷺ في متناول الرماح، ولكنه ظل يقرأ القرآن الكريم بكل هدوء دع عنك القلق، ولكن أبو بكر ﷺ كان يلتفت مرة بعد أخرى ليرى مدى اقتراب العدو منهما. هل يمكن العثور على نظير هذا التوكل؟ هل يوجد إنسان أظهر هذا النوع من عدم القلق والاضطراب في وقت عصيب وخطير مثله؟ لو كانت في باله أدنى فكرة لاستخدام الأسباب المادية لكان من المفروض إما أن يحاول الهجوم على سراقة أو يسعى للخروج من هناك سريعا، ولكنه ﷺ لم يختر أيا من هذين الخيارينِ إذ لم يُسرع للخروج ولم ينوِ قتل سراقة، بل ظل يقرأ القرآن الكريم بكل هدوء ماشيا بسرعته العادية بكل هدوء وسكينة دون إظهار أدنى خوف أو قلق. ما الذي قوّى قلبه ﷺ إلى هذه الدرجة؟ أية قوة رفعت همته إلى هذا الحد؟ أية روح خلقت فيه هذه الحياة غير العادية؟ إنها تجليات التوكل على الله تعالى الناتجة عن توكله على الله ﷻ. كان يعلم أن الأسباب المادية لا تستطيع أن تضره شيئا، ولا تقدر القوى المادية أن تهلكه لأن الإله في السماء الذي خلق هذه الأسباب يراقبه، وأن الأسباب لا تستطيع أن تعمل شيئا على عكس مشيئة خالقها. لم يُضِع الله تعالى توكلّه هذا، بل حققه فعاد سُراقة -الذي كان قد جاء طامعا في مئتي بعير- معتذرا ومستعفيا. وقد ألقى الله تعالى في قلبه رُعبا فرأى سلامته في العودة صامتا واجما، بل أقنع الملاحقين الآخرين أيضا بالعودة..

هذا التوكل لا يمكن أن يتولّد في شخص كاذب ولا يمكن أن يستقر في قلب مخادع. هذا هو التوكل الذي لا يوجد نظيره في العالم. يوجد نظير توكلٍ مثله في حياة موسى عليه السلام أيضا، ولكنه أدنى من توكّل النبي ﷺ بكثير لأن أصحاب موسى عندما رأوا فرعون وجنوده قالوا: "إنا لمدرَكون"، فقال لهم موسى: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الشعراء: ٦٣) ولكن توكل رسول الله ﷺ كان أعظم لدرجة أثّر في رفيقه أيضا. لم يقل أبو بكر ﷺ فزعا مثل أصحاب موسى "إنا لمدركون" بل قال: لو طأطأوا قليلا لرأونا. هذا الإيمان كان نتيجة

نور النبوة الذي كان نازلا على قلبه حينذاك. وثانيا: كان مع موسى عليه السلام جيش وكان مجال الفرار أمامهم مفتوحا حتما، ولكن لم يكن مع رسول الله أيّ جيش ولم يكن أمامه أيّ طريق مفتوح.

أقول: إن تدبير الأسباب واستخدامها، ثم التوكل على الله تعالى أمر ضروري. وفي معرض ذكر توكل النبي ﷺ، بيّن المصلح الموعود رضي الله عنه هذه النقطة قائلا إن الشخص الذي يمتلك يقينا بذات الله تعالى، ويوقن في الوقت ذاته بأن الله قد خلقه لغرض خاص، كيف يمكنه أن يترك العمل؟ بل إنه يكون أكثر الناس عملا. لقد كانت أعمال محمد رسول الله ﷺ ناتجة عن إيمانه؛ لأن الذي يدرك أن هناك إلها واحدا وأنه خلقه لغاية معينة، فإنه يسعى جاهدا لتحقيق هذه الغاية. وهكذا نرى أن محمدا رسول الله ﷺ عبّر عن إيمانه حين كان في غار ثور وقال لأبي بكر رضي الله عنه: "لا تحزن يا أبا بكر إن الله معنا وهو حافظنا". ونجده في الوقت نفسه ينشغل في أعمال الدين الأخرى ليلا ونهارا بحيث يبدو وكأن أعمال الخلق كله قد وُكلت إليه وحده. فمن ناحية كان موقنا بأن الله سبحانه وتعالى موجود وهو ينصر عباده ومن ناحية أخرى نراه لا يختبر الله، بحيث يجلس عاطلا زعما بأن الله قد وعده بالفتح فلا داعي لبذل المساعي، فسوف يرزقه الله الفتح بحسب وعده. فلم يفعل ذلك، بل قد بذل الجهود للفتح، فكان ﷺ يدرب الناس على أعمال عسكرية ويعلِّمهم الدفاع، ويُعِدّ الجيش مقابل العدو، ويدبر المراكب، ويجمع الأسلحة، ويدبر الطعام والسكن للجنود، وبعد تدبير كل هذه الأعمال كان يخرج لقتال العدو. وحين وجد العدو كثيرا ورأى عدد الصحابة قليلا، قال بكل ثقة ويقين وإيمان لا شك أننا قلائل لكننا سننتصر نحن حصرا.

فكان ﷺ يتخذ كل تدبير بشري ممكن، ثم يتوكل على الله، فلم يكن إيمانه إيمان الجهل والكسل، بل كان إيمانه إيمان المشاهدة، وإنما يكون إيمان المشاهدة لمن يتوكل على الله وفي الوقت نفسه يعمل أيضا، أي أنه يجمع بين العمل والتوكل في آن واحد.

يقول سيدنا المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام: "إن عصر المصاعب الذي عاشها نبيُّنا ﷺ في مكة لثلاثة عشر عاما، يتبين لنا بقراءة تاريخه بوضوح أن حضرته ﷺ قد أبدى الأخلاق التي يجب أن يبديها الصادق الكامل في عصر الشدائد، أي التوكلَ على الله واجتنابَ الفزع والشكوى والتقاعسِ في أداء مهامه، وعدمَ خضوعه لهيبة أحدهم، فآمن به الكفار برؤية تلك الاستقامة وشهدوا بأنه لا يستطيع الإنسان أن يبدي تلك الاستقامة ويصبر على الأذى ما لم يكن توكلُه على الله تاما".

لقد اتخذ النبيُّ ﷺ الأسباب أيضا متوكلا على الله، فقد وردت عن ذلك أحداثٌ كما قلت، وهناك حديث أيضا عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه حين جاء النبيُّ ﷺ وأصحابُه المدينة فآواهم أنصارُ المدينة عندهم، اجتمع العرب كلهم ضدهم، وكان المسلمون لا يبيتون دون السلاح، ولا يصبحون دون أن يكون معهم السلاح، فكانوا يحملون السلاح كل حين وآن عند النوم واليقظة، فكانوا يتوكلون على الله وفي الوقت نفسه كانوا يدبرون أمر الدفاع عن أنفسهم أيضا متحسبين هجوما محتملا في أي وقت.

ونجد تفصيل ذلك في رواية عن عائشة رضي الله عنها، تَقُولُ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ سهر ذات ليلة فقَالَ: "لَيْتَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِي صَالِحًا يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ". إِذْ سَمِعْنَا صَوْتَ سِلَاحٍ فَقَالَ: "مَنْ هَذَا". فَقَالَ أَنَا سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ فَقَالَ رسول الله ﷺ: "مَا جَاءَ بِكَ هنا؟". قال قد خشيت عليك إذ خطر ببالي حراستك فجِئْتُ لِأَحْرُسَكَ فدعا له رسول الله ﷺ وَنَامَ مرتاحا.

وفي رواية أخرى تحدثتْ السيدة عائشة رضي الله عنها عن حدث نفسه فقالت سَمِعْتُ صَوْتَ السِّلَاحِ فَقَالَ ﷺ: "مَنْ هَذَا". فسمع الجواب نحن سعد وحذيفة، (ففي هذه الرواية ذُكر اثنان) جئنا لنحرسك، ثم نام النبي ﷺ حتى سمعتُه يتنفس سريعا. فخلال ذلك نزلت آية ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِن النَّاسِ﴾، (فكان يتنفس سريعا عند نزول الوحي)، ثم أَخْرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَأْسَهُ مِنْ الْقُبَّةِ فَقَالَ لَهُمْ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ انْصَرِفُوا فَقَدْ عَصَمَنِي اللَّهُ". فما لم يتلق النبأ من الله ولم يتأكد دبَّر الحراسة، وحين تم التأكيد من الله قال للناس انصرفوا الآن سوف يعصمني الله.

حين أرسل النبي ﷺ رسائل الدعوة إلى شتى الملوك مزق كسرى امبراطورُ فارس رسالته، فلما علم ﷺ بذلك قال بكامل التوكل، مزق اللهُ هؤلاء هو نفسُه. كان كسرى قد أرسل سلفا جنديَين بواسطة والي اليمن لاعتقال حضرته ﷺ وحمَّلهما رسالة. فسمع ﷺ إلى موضوع الرسالة: "سلِّم نفسك لهذين على الفور"، فقال ﷺ للرسولين في تلك الساعة الخطرة دون أن يبدي أي فزع أو خوف: "امكثا هنا هذه الليلة، غدا سوف أرد عليكما". وفي الصباح التالي قال ﷺ لهما: "ارجعا إلى سيدكما والي اليمن (إذ كان كسرى قد أرسل الرسالة بواسطة والي اليمن) فقولا له: قد قتل ربي هذه الليلة ربَّك (أي كسرى)". فاندهشا من هذا الجواب وعادا، ثم تبين لاحقا أن شيرويه سائرس كان قد قتل أباه خسرو برويز في الليلة نفسها. هذا الحدث مظهرُ التوكل العظيم للنبي ﷺ على الله ﷻ وحمايته له ﷺ.

كان النبي ﷺ يخرج إلى الغزوات بإذن الله متوكلا عليه كاملا وكان يدعو الله عند الخروج. فعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا غَزَا قَالَ: "اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضُدِي وَأَنْتَ نَصِيرِي وَبِكَ أُقَاتِلُ".

يقول سيدنا المسيح الموعود عليه السلام: "صحيح أن الإنسان يقلق ويضطرب في المشاكل، لكن يجب عليه ألا يتخلى أبدًا عن التوكل. فكان النبي ﷺ أيضًا قد أصابه اضطراب كبير في بدر، فقد قال: "يا رب، إن أهلكت هذه العصابة فلن تُعبد في الأرض أبدًا". إلا أن اضطرابه كان بمقتضى البشرية فقط، لأنه ﷺ في الطرف الآخر لم يتخل عن التوكل قط، وكان نظره إلى السماء، وكان واثقا بأن الله ﷻ لن يضيعه أبدًا، فلم يدعْ اليأسَ يدنو منه. فإن ورود مثل هذه الاضطرابات ضروري لتكميل أخلاق الإنسان ومدارجه، ويجب على الإنسان ألا يدَع اليأس يقترب منه لأنه من صفات الكفار. فأنواع الأفكار تولِّد لدى الإنسان وسوسة الاضطراب، لكن الإيمان يقضي على تلك الوساوس. إن البشرية تجلب الاضطراب أما الإيمان فيُزيله".

ثم هناك حدثٌ مشهور يدل على توكله على الله ﷻ حيث وجده العدوُّ وحيدا فرفع عليه السيف، لكنه ﷺ قال له دون أي اضطراب: "إن الله سيعصمني منك".

لقد سرد حضرة المصلح الموعود ﷺ أيضا هذه الواقعة بأسلوبه فقال: ومما يدل على عظيم توكل النبي ﷺ أنه وجده ذات مرة أحد الأعداء نائمًا وليس معه أحد، فحمل عليه سيفه وسأله: من يمنعك مني؟ ومع أن النبي ﷺ كان من دون سلاح وراقدا ولم يكن بوسعه القيام بأي حركة دفاعية إلا أنه قال له بمنتهى الاطمئنان والهدوء:"الله". ولقد خرجت هذه الكلمة من فم الرسول ﷺ بيقين وثقة بحيث لم يجد قلب هذا العدوّ الكافر مناصا من الاعتراف بشموخ إيمانه وكمال يقينه وثقته بالله تعالى، فسقط السيف من يده، ووقف هذا الذي جاء لقتله أمام النبي ﷺ صاغرا كالمجرمين.

كانت أيام غزوة الأحزاب عصيبة جدا للمسلمين، وقد تقرر أن يواجهوا العدو من داخل المدينة بدون الخروج منها. ولم يكن هذا نتيجة خوف وقلة توكل على الله تعالى، بل كانت استراتيجية حربية. فحُفر الخندق حول المدينة ليحول دون العدو إذا ما جاء مهاجما دفعة واحدة. كان معظم المسلمين فقراء، وكان أكثرهم يكسبون القوت يوما بيوم، ومع هذا الضيق الشديد ساهم الجميع في حفر الخندق للاحتماء من تلك الهجمات، أما الذين كانوا لا يستطيعون العمل منهم كل يوم لكسب قوتهم فكانوا يظلون جياعا. وكانت كثير من قبائل العرب جاءت للهجوم معا على المسلمين في ذلك الوقت. وهناك اختلاف في الروايات بشأن عددهم، فتذكر بعضها أنهم كانوا عشرة آلاف على الأقل، بينما تذكر روايات أخرى أنهم كانوا خمسة عشر ألفا أو أربعة وعشرون ألفا. لو كان هؤلاء المهاجمون عشرة آلاف لكان هذا الجيش أيضا كبيرا جدا بالنظر إلى عدد سكان المدينة إذ كانت مدينة صغيرة. على كل حال، كان المسلمون قد استعدوا للتصدي لهذا الجيش الكبير مع كونهم في منتهى الضيق والفقر وقلة العدد. فكانت الاستراتيجية التي اتبعوها هي أن يقاتلوا العدو من داخل المدينة لكونهم قليلي العدد. وكان من فضل الله عليهم أنه كان قد أخبرهم سلفا بالوضع، فصاروا أقوياء الإيمان، فلم يرتعبوا برؤية كثرة العدو، بل قد زادهم توكلُ النبي ﷺ توكلا في ذلك الموطن، فما وهنوا وما استكانوا بسماع كلام المعارضين والمنافقين.

بل انظروا كيف دبر الله نتيجة ثباتهم وتوكلهم إذ قد أفزع العاصفةُ والإعصار الكفارَ، فهربوا من هناك وتركوا كثيرا من متاعهم وطعامهم نتيجة الهلع والفزع واستفاد منه المسلمون، فكان ذلك ببركة التوكل على الله.

في غزوة الأحزاب نفسها ظهرت كفاية طعام قليل للجيش كلِّه، وهذا الحدث معجزة ومثال عظيم للتوكل على الله. ففي رواية قال سيدنا جابر بن عبد الله الأنصاري ﷺ كنا نحفر الأرض يوم الخندق أي يوم غزوة الأحزاب، فاعترضتْنا صخرةٌ عاتية، فجئنا النبيَّ ﷺ وقلنا له أن صخرة عاتية تعترض أعمال الحفر، فقال: "ها أنا أنزل". أي آتيكم لتحطيمها. فقام وكان قد ربط حجارة على بطنه، فكان الناس يربطون الحجارة على البطون في ذلك العصر عندما تكون خالية، وكنا نعاني الجوع لدرجة لم نكن قد تذوقنا الطعام من

ثلاثة أيام. فأمسك النبيُّ ﷺ المعول فضرب به الصخرة ضربات فجعلها مهيلا وكومة من الرمل. فلما رأيت النبي ﷺ في هذه الحالة استأذنتُه في الذهاب إلى البيت. فأتيت البيت وقلت لزوجتي قد رأيت النبي ﷺ في حال لم أُطق رؤيته ﷺ فيها، أي قد رأيته قد ربط الحجارة على بطنه من شدة الجوع، فهل عندك شيء للأكل؟ فقالت عندي شيء من الشعير وخروف صغير، فذبحتُ الخروف وطحنت الشعير، ثم وضعت اللحم في قِدر من الحجر وقد أُعد العجين، فأتيت النبيَّ ﷺ وقلت له وكان إعداد الطبيخ وشيكا، فقلت له ﷺ يا رسول الله عندي طعام قليل، فشرِّفني لتناوُله مع واحد أو اثنين من الأصحاب. فسألني: "كم عندك من الطعام؟". فأخبرته فقال: "هذا كثير. إذا كان عندك لحم خروف وشيء من عجين الشعير فلا بأس وفيه الكفاية". ثم قال: "قل لزوجتك ألا تُنزل القدر من على الموقد ولا تُخرج الخبز من التنور قبل أن أَحضر". ثم قال للصحابة: "قوموا". فقام الصحابة والأنصار، فلما عاد سيدنا جابر إلى زوجته قال لها بارك الله فيك قد جاء النبي ﷺ مع المهاجرين والأنصار وكل من معه. فقالت له هل كان النبي ﷺ قد سألك عن شيء؟ قلت نعم قد سألني عن كمية الطعام، ثم أخذ الصحابة وقال لي ادخل البيت واجلس هناك بهدوء ولا تتسرع. ثم بدأ النبي ﷺ يقطع الخبز ويضع على كل قطعة شيئا من الطبيخ ويعطي الصحابة، إذ كان الخبز مغطى بالثوب وكان يقطع منه ويضع عليه شيئا من الطبيخ ويقدم للصحابة، وكان كلما أخذ من الخبز من التنور وشيئا من الطبيخ غطاه من جديد، حتى شبع الصحابة، وبقي قليل من الطعام. ثم قال النبي ﷺ لزوجة جابر: "الآن تناولي الطعام أنت أيضا وأرسلي للناس أيضا هدية، لأن الناس جياع". فكان هناك توكل ودعاء للبركة أيضا فبورك فيه.

ثم في رواية أن شخصا قال لِلْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ هل تركتم النبيَّ ﷺ في غزوة حنين هاربين؟ قال نعم، لكن النبي ﷺ لم يترك الميدان، فكان بنو هوازن رماة، فلما التقينا هجمنا عليهم فانهزموا، وبدأ المسلمون يجمعون الغنائم، عندها بدأوا يُمطرون السهام في وجوههم، فلم يترك النبيُّ ﷺ مكانه، فقد رأيته على بغلته البيضاء وأبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب يمسك لجامها، وكان النبي ﷺ يقرأ البيت: "أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب". أي إنني أنا النبي الموعود وليس في ذلك أي كذبٌ، وأنا ابن عبد المطلب.

فقد بيَّن حضرة المصلح الموعود ﷺ أيضا هذه الواقعة بشيء من التفصيل، أن قوله ﷺ: "أنا ابن عبد المطلب"، لا يعني أن هجوم العدو شديد لدرجة أن أربعة آلاف رامٍ يُمطرون السهام، وإن تقدمي في هذه الحالة غيرَ خائف يبدو فوق البشرية، ولا ينخدعن بذلك أحدكم ويظن أنني حائز على قدرة إلهية، ألا إنما أنا ابن عبد المطلب، وفردٌ من البشر فقط. إنما يحالفني نصرُ الله لكوني نبيا منه، ولأنني أتوكل على الله ﷻ وأوقن بأنه ما دام قد وعدني بالنجاحات فسوف يُنجحني حتى تحت وابل الأسهم هذا أيضا.

ورد في إحدى الروايات مثالٌ آخر للتوكل على الله واليقين بوعوده تعالى. إذا نظرنا إلى الوقائع الأولى ثم إلى الوقائع الأخيرة، وجدنا فيها جميعًا نماذج للتوكل نفسه. كان الحدث السابق متعلقًا بغزوة حُنين، أما

هذا الحدث فيتعلق بغزوة بدر، وهي أولى المعارك. كان في المدينة رجل شديد القوة والشجاعة يُدعى حبيب بن يساف، وكان المسلمون آنذاك في حالة من الضعف الشديد. وكان هذا الرجل ينتمي إلى قبيلة الخزرج، ولم يكن قد أسلم حتى وقت غزوة بدر، إلا أنه خرج للقتال مع قومه من الخزرج، وكان يأمل أيضًا أن ينال نصيبًا من الغنائم إذا تحقق النصر. وقد فرح المسلمون كثيرًا لانضمامه إليهم في القتال، غير أن النبي الكريم ﷺ قال له: "لا يخرج للقتال معنا إلا من كان على ديننا". وفي رواية أنه ﷺ قال له: "ارجع، فإننا لا نريد أن نستعين بمشرك".

ثم جاء حبيب بن يساف إلى رسول الله ﷺ مرة ثانية، لكن النبي الكريم ﷺ أعاده في المرة الثانية أيضًا. وأخيرًا، حين جاء في المرة الثالثة، سأله النبي ﷺ: "أتؤمن بالله ورسوله؟". فقال: نعم. فأسلم بعد ذلك وقاتل بشجاعة بالغة. وهكذا، فعلى الرغم من تلك الظروف الصعبة والحاجة الماسّة، لم يقبل النبي ﷺ الاستعانة بهذا الرجل ما دام على الكفر؛ لأن الاستعانة بغير المؤمنين في مثل هذه الحال كانت منافية لليقين بوعود الله تعالى والتوكل عليه.

ويقول المسيح الموعود عليه السلام:

"يرى عقلاء هذا الزمان أن اتخاذ أي شخص عدوًّا يُعد خطأ، ولكن إذا أردتم الحق، فإن هذا أيضًا دليل على الصدق. فلم يراعِ النبي الكريم ﷺ في قول الحق خاطر أحد، حتى صار كل واحد منهم عدوًّا له. لقد ساءت علاقته بالجميع بسبب قوله الحق؛ ولأن أحدًا لم يكن يريد سماع الحق، كان لا بد من نشوء العداوة بينه وبين الناس. وفي نظر هؤلاء الناس، نعوذ بالله، يكون النبي ﷺ قد أخطأ، مع أن معاداة الجميع ابتغاء مرضاة الله وحده دليل بيّن على صدقه، ومن ذلك تُعرف قوة إيمانه".

ومن جهة أخرى، يضرب عليه السلام مثال المسيح عليه السلام، فيقول: "انظروا إلى تعاليمه الواردة في الأناجيل. وعندما يعترض الناس على المسيح عليه السلام، يقول عليه السلام لهم: إنما أبيّن الأمر بحسب ما ورد من تعاليم في الأناجيل. ويتضح من ذلك أن نهجه لم يكن قائمًا على إغضاب أحد قط. فقد قيل لليهود: إني لم آتِ لأغيّر من التوراة حرفًا أو نقطة واحدة. أما إذا نظرنا إلى تعاليم النبي الكريم ﷺ، فلن نجد على وجه الأرض فرقة أو ديانة إلا ودعاها، وبيّن ما فيها من أخطاء، ثم أعلن في مواجهة الجميع أنه سيكون مظفّرًا منصورًا. ولم يكتفِ ببيان أخطائهم ومواجهتهم، بل أعلن: إن لي يقينًا بالله تعالى وتوكّلًا عليه، وإن انتصاراتي آتية إن شاء الله، لأنني مبعوث من عنده".

ثم يقول عليه السلام: "فأخبروني، هل يستطيع أحد أن يفعل ذلك ما لم يكن لديه توكل كامل على الله ويقين تام به؟".

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وبارك وسلم إنك حميد مجيد

****